

أيهما أعظم: محمد أم المسيح ؟

الدراسة التي بين يدي القارئ هي في الرد على كتاب من الكتب التي تمتلئ بها مواقع النصارى المهجريين يتحدثون بها المسلمين، وعنوانه: " من هو الأعظم؟ المسيح أم محمد؟ سؤال لا بد من جوابه. رواية دينية بعد حادث واقعي ". والملاحظ أن عبد المسيح وزملاءه، وهم مؤلفو الكتاب المذكور، يتكلمون عن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، لا على أنه دَعِيٌّ كذاب، بل على أنه نبي كبير وعظيم من عظماء التاريخ، بل على أنه ثاني أعظم عظيمين هما المسيح ومحمد عليهما السلام. وقد قمت في الدراسة التي نحن بصددتها الآن بتقسيم كتاب عبد المسيح وزملائه إلى عدة أقسام، بادئاً أولاً كل قسم من هذه الأقسام بنجمة واحدة، ثم مُتَّبِعاً إياه بالرد المطول على ما فيه، لكن عقب نجمتين. وبعد هذا التوضيح أترك القارئ مع الكتاب والرد عليه ليحكم بنفسه لنفسه في هذا الموضوع الهام.

من هو الأعظم؟ المسيح أم محمد؟

سؤال لا بد من جوابه - رواية دينية بعد حادث واقعي

عبد المسيح وزملاؤه

* * *

تمهيد

* نعيش في عصر السرعة حيث قرّبت الطائرات السريعة القارات البعيدة، وتحرك فيضان الكتب وبرامج التلفزيون قلوب الشعوب، وتختلط القبائل والأجناس تلقائياً. وتطفو الأسئلة وتدور الأبحاث، فينبغي على الجميع أن يتساءلوا: ما هو الحق الأزلي؟ وما هي الأفكار البناءة التي نقبلها بضمير صالح وبدون اشمئزاز؟ فكل من يتعلم الاستماع والإصغاء لآراء الآخرين يكتسب أفقاً أوسع من محيطه المحدود.

** ونحن مع عبد المسيح وزملائه في أن يفتح الناس جميعاً عقولهم وقلوبهم لمعرفة ما في أيدي الآخرين وتقاييب البضاعة التي يعرضونها قبل أن يصدروا حكماً عليها، إذ الحكم على الشيء فرع من تصوره. أما إذا كان التصور غير موجود أصلاً لأن الإنسان لم يطلع على ذلك الشيء، فهل يا ترى من المستطاع له أن يصدر حكماً بشأنه؟ بالطبع لا. والمعروف أنه في كل مرة من المرات التي كان الكفار يعترضون على نبينا الكريم كان القرآن يدخل معهم في حوار ويجادلهم ويعرض ما عنده في سعة صدر، ويفند ما عندهم بمنطق مفحم، ويطلب منهم دائماً تشغيل مخهم وعرض كل شيء على عقولهم قبل أن يرفضوه. ولم يقع قط أن صادر حقهم في التفكير ولا في القبول والرفض. كذلك يعلن القرآن في مواضع متعددة منه أن العقل هو أساس الإيمان، وأن كل إنسان حر في أن يؤمن بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام أو يكفر، فهذه مسؤوليته الشخصية، لا دخل لأحد سواه فيها، ولا حساب عليه إلا في حدود التوسع. وعلى هذا ينبغي أولاً أن يُعرض الإسلام عليه عرضاً حسناً يُبدي عما فيه من روعة وإبداع، وإلا فكيف يمكن أن يكون هناك حساب لمن لم يعرف شيئاً عن الإسلام، أو عرفه ولكن بطريقة مشوهة تستر محاسنه وتضفي

عليه عيوباً لا يعرفها ولا تعرفه، وليس ثمة وسيلة يمكنه بها أن يعرف الحقيقة في أمر ذلك الدين؟ قال سبحانه وتعالى: " لا يكلف الله نفساً إلا وسعها "، " لا إكراه في الدين. قد تبين الرشد من الغي "، " وإنا أو إياكم لعلی هُدى أو فى ضلال مبين "، " قل: لا تُسألون عما أجرمنا ولا تُسأل عما تعملون "، " كذلك زينا لكل أمة عملهم، ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون "، " وقل: الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر "، " قل: إنى أعظمكم بواحدة: أن تقوموا لله مثنى وفردى، ثم تتفكروا: ما بصاحبكم من جنة. إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ". خلاصة القول أننا نوافق تماماً عبد المسيح وأصحابه فيما يدعون إليه فى هذه الفقرة التمهيدية.

* * *

1- السؤال المثير

* اعتاد أحد خدام الرب زيارة السجون في إحدى البلدان العربية ليُعلن طريق الحياة للمساكين. وكان يحصل على رخصة رسمية من دوائر الحكومة لزيارة كل من يريد أن يسمع بشارة الحق والسلام التي تطهر القلوب وتغير الأذهان. وكان خادم الرب هذا يدخل الزنزانة بدون مرافقة حارس، رافضاً الحراسة ومتأكداً أن البحث الصريح لا يجري مع المسجونين تحت المراقبة، فكان يتقدم منفرداً إلى غرف المجرمين ويجلس معهم. دخل مرة إلى جماعة من السجناء مدكوم عليهم بالسجن أكثر من عشر سنوات، وكانوا قد عرفوه من زيارته السابقة وتعودوا أن يستمعوا إلى إرشاداته للحق وبشرى الخلاص. وكانوا يتباحثون بعد خروجه حول خطاباته بشدة وحماس لا نظير لهما. لما دخل هذه المرة

إلى زنزانتهم أفلتوا فوراً الباب وراءه قائلين له: إنك لن تخرج من هذه الغرفة إلا إذا جاوبتنا جواباً قاطعاً وصريحاً على سؤالنا، فردّ خادم الرب عليهم قائلاً: إنني آتي إليكم طوعاً وبدون حارس مسلح وأقدم لكم أجوبة من كلمة الله بقدر إمكانياتي، وما لا أعرفه لا أقوله. فأجابوه: لا ننتظر منك أسراراً عن النجوم ولا أساليب السحر بل نطلب منك كرجل دين جواباً قاطعاً ونهائياً على السؤال المتداول بيننا: من هو الأعظم؟ محمد أم المسيح؟ لما سمع خادم الرب هذا السؤال قال في نفسه وهو في حيرة: إن قلت إنَّ محمدًا هو الأعظم يهاجمني السجناء المسيحيون، لأنَّ الجالسين في هذه الزنزانة كانوا مجرمين وبلا ضمير. وإن قلت إن المسيح هو الأعظم لربما يقوم أحد المسلمين عليّ ويكسر رقبتني من شدة غيظه، علماً أن كل من يهين محمدًا أو يشتمه يُعتبر عند بعض المسلمين مجدفًا يستحق الموت. فصلى خادم الرب في قلبه سائلاً ربه لئلهمه الإجابة الحكيمة المقنعة لهؤلاء السجناء. وكل من يسأل إرشاد الرب في الأوقات الحرجة ينل منه الجواب فوراً. فألهم الروح القدس هذا الخادم المتضايق، وهو خلف الباب المغلق، جواباً واضحاً قدمه بتواضع. ولما تباطأ خادم الرب أثناء صلاته الصامتة للإجابة على هذا السؤال قال له المساجين: لا تنهرب من مسؤوليتك، ولا تكن جبائناً، بل اعترف بالحق كله. فنتعهد لك بأن نتركك بلا إهانة ولا مضايقة مهما قلت لنا. فلا تكذب ولا تُخفِ أفكارك، بل أخبرنا بالحق الكامل. فابتدأ رجل الله يقول: أنا مستعد أن أقول لكم الحق الصريح، إنما السؤال المطروح أمامي ليس هو الموضوع الذي أعدته لكم اليوم من الكتاب المقدس، ولكن إن صمّمت على أن تسمعوا المقارنة بين محمد والمسيح فلا أخفي عنكم الحقيقة. إنما لست مسؤولاً على ما ينتج عن شروحاتي، بل أنتم المسؤولون لأنكم تجبرونني

على إجابة سؤال لم أطرحه وما نويته إطلاقاً. فهذا هو ردِّي: لا أقرر أنا من هو الأعظم، بل أترك القرآن والحديث أن يُعطيكم جواباً مقنعاً. تأملوا في القرآن بأعين الحق فتعرفوا الحق المخفي، والحق يحرركم.

**** بالنسبة لهذه القصة يؤسفني أن أقول إنها لا تدخل العقل، بل هي من اختراع المؤلف أو المؤلفين، اخترعوها لتكون إطاراً فنياً مشوقاً متوسمين أن يكون الإقناع بها على هذا النحو أشد وأفعل في نفس القارئ، وإلا فأية دولة عربية تسمح لواحد من غير ضباط السجن وجنوده أن يدخل زنازين المسجونين، فضلاً عن أن يترك المسؤولين في السجن باب الزنازاة وراء الوعاظ ليقوم المساجين بإغلاقه بأنفسهم من الداخل (الله أكبر!) أو تركه مفتوحاً حسبما يحدو أو يعين لهم لا حسبما يريد المسؤولون في السجن؟ إن المتبّع في مثل تلك الحالة هو إخراج المساجين من زنازينهم إلى قاعة كبيرة حيث تتم أمثال تلك المقابلات، أما في الزنازاة فلم نسمع بمثل هذا في آبائنا الأولين! ثم كيف يا ترى يمكن أن نصدق لجوء المسلمين لواحد من القسس لحسم السؤال موضوع القصة؟ وهل يشك المسلم في هذه القضية، بلّه أن يلجأ إلى قسيس يعلم هو قبل غيره أنه سيختار المسيح بطبيعة الحال؟ وكيف لم يلاجأوا إلى عالم مسلم يستفتونه في هذه المسألة إن ثار في أذهانهم مثل هذا السؤال أصلاً؟ ذلك أن المسلمين يؤمنون بكل الأنبياء والمرسلين ويحترمونهم كلهم. وهم، وإن آمنوا بأن محمداً هو أفضل الأنبياء، لا يجعلون منها قضية يدخلون بسببها في مجادلات ومماريات مع كل من هب ودب.**

ولنلاحظ التفرقة التي صور بها الكاتب أو الكاتب رد الفعل عند كلا الفريقين: فأقصى ما سيفعله النصارى بالقسيس إن اختار الذبي محمداً أنهم سيهاجمونه. وليأخذ القارئ باله من أنهم "سيهاجمونه" وكفَى دون

أن يكون هناك تحديد لنوعية هذا الهجوم، وهو ما قد يعنى العمل على ضربه دون أن يشفعوه بالتنفيذ بالضرورة. فهذا ما يفد على الذهن حين نسـ مع كلمـة

" يهاجمونه ". أما عندما وصف استجابة المسلمين لتفضيله المفترض للسيد المسيح فقد قال تحديداً: " وإن قلت إن المسيح هو الأعظم لربما يقوم أحد المسلمين عليّ ويكسر رقبتى من شدة غيظه، علماً أن كل من يهين محمداً أو يشتمه يُعتبر عند بعض المسلمين مجدّفاً يستحق الموت ". والفرق واضح للأعمى، وهو يعنى أن الكاتب أو الكتاب يصف المسلمين بالقسوة والفظاظة، بخلاف النصارى، فإن أقصى ما يُتَوَقَّع من مجرميهم عديمى الضمائر أن يهاجموه، لكن دون أن يكسر أحد منهم رقبتة على الإطلاق. كما أنه فى الوقت الذى ينص على أن الموت ينتظر من يشتم النبى محمداً فإن النصارى لا يفكرون فى شىء من هذا البتة. ولم لا، وهم ناس متحضرون حتى لو كانوا مساجين مجرمين بلا ضمير؟

ولكن قبل ذلك كله كيف يريد منا مؤلف القصة الاقتناع بأن أمثال هؤلاء المجرمين عديمى الضمير (كما يسمونهم) يمكن أن تشغل عقولهم فى السجن (مرتع الجرائم والفساد كله) مثل تلك القضايا الترفية التى لا تفد إلا على أذهان من ارتقوا فى تدينهم وقطعوا فى ذلك أشواطاً بعيدة؟ ثم قبل ذلك كيف تسمح السلطات فى بلد من البلاد أن يدخل واعظ من دينٍ ما الزنزانة على جميع المساجين من كل الأديان دون أن تفرز أبناء دينه على حدة فيكلمهم براحتة فى شؤون دينهم دون أن يزجوا الآخرين بما يقولون، بل بما يمكن أن تقوم بسببه فتنة فى الزنازين لا يعلم مدى فداحتها إلا الله وحده؟ بل هل يمكن أن يقبل العقل ترك السلطات المسلمة فى السجن واعظاً نصرانياً يدخل على مساجين مسلمين يبشرهم بدينه مع

أبناء طائفته؟ الحق أن هذا كلام لا يهضمه العقل مثلاً لا يهضم العقل معكوسَ هذا الوضع من سماح السلطات في بلد نصراني لواعظ مسلم بالدخول على المساجين النصاري يعرض عليهم دينه ويعمل على إدخالهم فيه! وأخيراً فمنذ متى يحسن المجرمون عديمو الضمير أن يقولوا مثلاً هـ_____ العبارة المتوقّعة:

" لا ننتظر منك أسراراً عن الذجوم ولا أساليب السحر بل نطلب منك كرجل دين جواباً قاطعاً ونهائياً على السؤال المتداول بيننا: من هو الأعظم؟ محمد أم المسيح؟ " ؟ وهل يا ترى سوف يقتنع المسلمون بما سيقوله واعظ نصراني عن تفضيل المسيح؟ وكيف يعرفون أنه صادق في حكمة أو كاذب؟ ما معيار الصدق والكذب هنا؟ إنه، لدى السائلين في قصتنا، هو أن محمداً الأفضل، وما عدا هذا لن يكون في نظرهم صدقاً على الإطلاق!

ونصل إلى العبارة الأخيرة، وهي تكشف أن القصة كلها، كما قلت أدفاً، قصة مخترعة، فهذا هو ذا القسيس يقول إنه سوف يترك القرآن والحديث يعطيانههم جواباً مقنعاً. أي أن الكلام موجه إلى المسلمين وحدهم، وهو من ثم لا يريد أن يقدم لهم دليلاً من خارج الكتاب والسنة اللذين لا يؤمنون إلا بهما. فأين ذهب النصاري إذن؟ أو لم يكونوا ضمن من كانوا يتباحثون في تلك القضية وسألوه الجواب فيها، وخاف هو نفسه منهم أن يهاجموه إذا أجابهم بما لا يتوقعونه ولا يريدونه؟ ثم إن قوله: " إن قلت إن محمداً هو الأعظم يهاجمني السجناء المسيحيون " لهو دليل آخر على أن القصة مخترعة مفتراة، إذ كيف يتصور أن من المستطاع إقناعنا بأنه يمكن أن يصدر الحكم منه لصالح محمد، وهو الذي يؤمن بأن المسيح إله أو ابن الإله، ومحمد على أحسن تقدير هو مجرد نبي؟ فمن يا

ترى يضع النبي البشر قبل الإله؟ اللهم إلا إذا أراد أن يقول لنا إنه كان واعظاً تجريدياً لا ينتمى إلى أى دين، بل يدعو إلى الفضيلة المطلقة دون ربطها بعقيدة أو عبادة معينة. لكن هذا الافتراض يكذبه تسميته بـ "عبد المسيح" تكذيباً شديداً! كذلك فإن الواعظ النصراني يعلن أنه سوف يتخذ معياره من القرآن والحديث النبوي، فهل سيفى بوعد فعله ويلتصق بكتاب الله وسنة نبيه لا يخرج عنهما، أو سوف يذسى هذا الوعد ويخرج عنهما إلى العهد الجديد ولو بين الحين والحين، علاوة على تفسيره نصوص القرآن والسنة بما لا يقبلانه من تفسير؟ لن نسارع بالجواب الآن، وعمّا قليل سوف نرى ما يفعله "خادم الله" بنفسه.

* * *

2- ولادة محمد والمسيح

* يعرف الجميع أن أبا محمد هو عبد الله، وأمه هي آمنة. فكان محمد إنساناً حقاً من والد معروف وأم محترمة. لم يذكر القرآن ولا يقول علماء الإسلام إن محمداً وُلِدَ بطريقة غير طبيعية، فلم تخلقه بشارة ملاك، ولا وُلِدَ من كلمة الله، بل وُلِدَ بطريقة طبيعية مثل باقي الناس من أبيه عبد الله وأمه آمنة. ويخبرنا القرآن مراراً أن المسيح لم يولد بطريقة طبيعية كسائر البشر، ولم يكن أبوه بشراً، فوُلِدَ من مريم العذراء بدون تدخل أي رجل لأن الله نفخ من روحه فيها. فالمسيح هو الإنسان الوحيد الذي وُلِدَ من روح الله- سورة النساء 4: 171، وسورة الأنبياء 21: 91، وسورة التحريم 66: 12. ليس المسيح إذن إنساناً عادياً بل روح إلهي وبنفس الوقت جسد عادي، إذ وُلِدَ من روح الله ومن مريم العذراء. لم يولد محمد من روح الله، إنما وُلِدَ من أب حق وأم حقة، فهو جسد عادي فقط لا روح